الدلالة الاجتماعية في القراءات القرآنية

الدكتور إسماعيل عباس حسين
كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية
الجامعة المستنصرية

خلاصة البحث

شكلت الدراسات القرآنية الحلقة الأبرز في الدراسات اللغوية مذ بداياتها الأولى على يد الرعيل الأول من علماء العربية وما برحت القراءات القرآنية الظاهرة الأبرز في تلك الدراسات فكانت لنا هذا البحث الذي تناول الدلالة الاجتماعية التي تنبثق من خلال القراءة القرآنية.

ولا يخفي على المختص في اللغة العربية إن اللهجات التي تنطوي تحت اللغة العربية ما هي إلا انعكاس حقيقي للتنوع البيئي والقبلي في الجزيرة العربية، وما تمثله تلك اللهجات من ظواهر لغوية وصفات تختص بها من دون سواها.

وعلم اللغة الاجتماعي واحد من العلوم اللغوية الحديثة التي تعنى بدراسة اللغة في إطارها الاجتماعي، ومن خلال هذا العلم نستطيع أن نتواصل إلى فهم الحياة الاجتماعية العربية في ذلك العصر.

إذ إن لكل صيغة دلالة تختلف في التعبير اللغوي عما سواها من الصيغ، فإذا كانت الزيادة في المباني دليل على الزيادة في المعاني، فان تغيير المباني دليل على تغيير المعاني ولا يعنينا من القراءات سوى تلك التي تحمل بين طياتها دلالة اجتماعية، وهذه القراءات كانت مدار البحث

والتحليل وخلص البحث إلى انه لايمكن فهم الحياة الاجتماعية للعرب في بيئتهم التي عاشوا فيها قبيل الإسلام وبعده إلا من خلال لغتهم التي تعبر عن عاداتهم وتقاليدهم وهذا ما ظهر لنا من خلال النماذج التي سقناها والتي كانت أحد الأسباب وراء تعدد القراءات القرآنية.

منذ أن تشكل المجتمع البشري في كيان مترابط برزت الحاجة الى وجود وسيلة تحقق ذلك الترابط، فكانت اللغة في أطوارها الأولى، وتحققت في الكلام، إذ إنّ الكلام هو سلوك اجتماعي بوصفه وسيلة للاتصال، وطريقة تمييز المجموعات الاجتماعية المختلفة[١] والكلام، أي: اللغة باعتبارها سلوكاً اجتماعياً فهي ترتبط حتماً بالمجتمع وشرائحه الاجتماعية المختلفة، فاللغة كما يقول ابن جني: ((أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم)) [٢]. فهي وسيلة من وسائل التعبير ونقل الأفكار في اطار البيئة اللغوية وفي مجتمع معين، ولهذا ((فانّ للمفردات وظيفة الحفاظ على الفوارق بين الطوائف الاجتماعية)) [٣].

واللغة ليست الوسيلة الوحيدة في التعبير عمّا يختلج في داخل الانسان، وانّما هناك وسائل تعبيرية أخرى منها: التعبير بالاشارة، والتعبير بملامح الوجه، والتعبيرات الصوتية وغيرها من الوسائل، إلاّ أنّها تبقى الوسيلة الاساس للاتصال البشري، لأنها كائن عضوي ونشاط فكري وظاهرة اجتماعية تلازم البشر وتخضع للحياة في تطورها الطبيعي، وهي قبل أن تكون وسيلة للتفكير وواسطته للتعبير كانت في الواقع وسيلة للفعل، ونشاطاً من انشطته فالانسان المفكر هو الانسان الفاعل والانسان الفاعل هو الانسان الناطق، فالانسان بوصفه انساناً، هو خالق المنطق العقلي والمنطق العلمي، فاللغة والتفكير كلاهما مرتبط بالآخر تمام الارتباط، انما يترجمان عنه حين يصنف الاشياء ويعزز ما بينها من الروابط [٤] فاللغة في كل مجتمع هي نظام عام يشترك الافراد في اتباعه، وهي ليست من الامور التي يصنعها فرد معين أو أفراد معينون، وانما تخلقها طبيعة الاجتماع وتنبعث عن الحياة الجمعية، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر، وتبادل للأفكار، وكل فرد منّا ينشأ فيجد بين يديه نظاماً لغوياً يسير عليه مجتمعه، فيتلقاه عنه تلقياً بطريق التعليم والمحاكاة، كما يتلقى

عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى، ويصب أصواته في قوالبه، ويحتذيه في تفاهمه وتعبيره[٥] .

فاللغة هي المرآة العاكسة لطبيعة الحياة الانسانية، ومن خلالها يمكن تحليل الظواهر الاجتماعية، والكشف عمّا كان غامضاً من الاستعمالات اللهجية التي تعبر عن طبيعة المجتمع، والسلوك اللغوي لذلك المجتمع؛ فهي ظاهرة حياتية، اجتماعية؛ ولكونها كذلك فهي أكثر الظواهر التصاقاً بحياة الأفراد، وهي خاضعة لمقاييس المجتمع وعاداته وتقاليدة وثقافته، بل هي الطريق لكشف عادات المجتمع وتقاليده ومستواه الحضاري؛ ولهذا يعتريها التبدل والتغير أكثر مما يعتري الظواهر الاجتماعية الأخرى .[٦]

وتتفرع اللغة الواحدة الى لهجات ولغات، ويرجع السبب الرئيس في هذا التفرع الى انتشار اللغة في مناطق واسعة، واستخدامها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس.

وتبدو هذه النتيجة في صورتين: احداهما انشعاب اللغة الواحدة الى لهجات محلية، تتكلم بكل لهجة منها منطقة خاصة من مناطق هذه اللغة، والأخرى انشعاب اللغة الواحدة الى لهجات اجتماعية، تتكلم بكل لهجة منها طبقة خاصة من طبقات السكان[٧] .

فاللهجة ((مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي الى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة)) [٨] .

وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم لهجات عدة، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تسهل اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات .[٩]

وتنطوي تحت اللغة العربية مجموعة كبيرة من اللهجات التي تمثل بيئات لغوية مختلفة، اذ انّ لكل بيئة صفات لغوية تختص بها ، الا انّها تنتمي جميعاً الى لغة عامة مشتركة هي لغة التفاهم والتخاطب بين افراد هذه البيئات كلها.

وقد عزى بعضهم اختلاف تلك اللهجات الى عاملين رئيسين هما :

١ - الانعزال بين بيئات الشعب الواحد .

٢- الصراع اللغوي نتيجة غزو او هجرات .[١٠]

ومن المؤكد ان بيئة الجزيرة العربية قد تعرضت بيئاتها اللغوية الى شيء من هذه العوامل، مما جعل هذه الجزيرة شاهدة على نماذج لغوية بيئية مختلفة، وقد أشار الدكتور حسين نصار الى طبيعة تلك الاختلافات قائلاً: ((فاختلفت في مظاهر حياتها؛ ومنها لغاتها، ولكنه اختلاف لم يؤدّ الى الانفصال التام، وانما هو اختلاف في بعض المفردات اللغوية، وطرق اللفظ بها، وتأليف عباراتها، والمظاهر التي تصاحب التركيب؛ مع انحدار هذه اللغات من أمّ واحدة))[١١]

ولم يعن العلماء بجمع هذه اللهجات المتخالفة فهي منشورة في كتبهم حيث يطلبها الشاهد في عرض كلامهم ؛ لأنّهم لم يحاولوا وضع تأريخ للغة يصف الأدوار التي مرّت بها ، والأطوار التي تقلب فيها .

وقد أنزل القرآن الكريم على النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم- والواقع العربي كظاهرة اجتماعية موزع بين بيئات لغوية طبيعية مختلفة، ولم يكن من العسير جداً على أفراد القبائل العربية كافة قراءته، فقد كان بلسان عربي مبين، قال تعالى: ((انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)) [يوسف ٢] وقال تعالى ((فانّما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون)) [الدخان ٥٨] ولسان النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – هو العربية عامة، وعربية (لهجة) قريش من أهل مكة خاصة؛ لذا فالراجح أن يكون القرآن قد أنزل بلهجة قريش؛ وقد يكون في قوله تعالى: ((وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه)) [ابراهيم ٤] ما يؤيد هذا الترجيح، ويؤكده ما ورد من آثار في هذا الشأن؛ ويروى أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كتب الى عبد الله بن مسعود وهو في الكوفة: ((أما بعد: فانّ الله انزل القرآن بلغة قريش، فاذا أتاك كتابي هذا فاقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل))[١٢]

وقريش احدى القبائل العربية، وكان للقبائل الأخرى لغاتها (لهجاتها) ومن الطبيعي أن يوجد تباين لغوي في أمور معينة بين تلك اللهجات، وهو تباين لايطغي على وجوه الاتفاق والتقارب بين اللهجات العربية، ولا يحول

دون تفاهم أفراد تلك القبائل[١٣]؛ إلاّ أنّ بعضهم قد صعب عليهم نطق القرآن نطقاً مطابقاً تمام المطابقة لنطق النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم – لاعتياد ألسنتهم النطق بلهجات قبائلهم التي نشأوا وشبوا عليها، فأصبح من غير اليسير تحويل ألسنتهم الى نطق آخر، وان كان نطقاً عربياً وهذا ما ذهب اليه ابن قتيبة في قوله: ((ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً، لأشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه الاّ بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات)).[١٤]

والمتسع الذي أشار اليه ابن قتيبة وغيره من العلماء هو ورود حديث عن رســـول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم - يدل على نزول القرآن على سبعة أحرف: ((انّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه)) وهو حديث مشهور، روي عن كثير من الصحابة، بألفاظ متقاربة ومعان متفقة. [١٥] والى هذا ذهب السيوطي بقوله: ((أنزل القرآن بلسان قريش ثم أبيح للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عاداتهم بأستعمالها على اختلافهم في الالفاظ والاعراب)).[١٦]

اذن فاللهجات تعد من المصادر المهمة في نشأة القراءات القرآنية، بل الاساس ارتباطها ببعض العرب في لغاتهم القبلية، وعامل اللهجات من العوامل المهمة في اثراء جانب القراءات والتي واكبت مسيرتها اللغوية؛ وبهذا نرى أن القراءات القرآنية انما هي مظهر من مظاهر أختلاف اللهجات العربية التي تمثل بيئاتها اللغوية.

وللبيئة اللغوية أثر كبير وفاعل في تحديد وجهة كل قارىء، إذ إنّ اللسان المرتبط بتلك البيئة أكانت قبيلة أو فئة اجتماعية معينة ذات مستوى علميّ ما، أو إن كان من يمثل البيئة أو الكيان اللغوي فرداً توافرت لديه خبرات متراكمة باللغة عبر الأمتدادين الأفقي في المحيطين الجغرافي والاجتماعي، والعمودي في المحيط التأريخي الممتد تدويناً أو رواية لسجل الامة التراثي، إذ انّ فرداً كهذا يعد كياناً لغوياً قائماً بنفسه، ومن هنا ((فإنّ الأفراد من ذوي الخلفيات اللغوية الاجتماعية المختلفة يتجهون الى اقامة

نماذج تصويرية تختلف حسب خبرتهم باللغة والمجتمع)) [١٧] فتكون آثارهم في اللغةـــ نصوصاً أو تنظيراً- ذات أثر عظيم تقبّل عليه الأمة وتتأثر به .

ومعروف أنّ قراء القرآن الكريم رجال حظيوا بمكانة علمية رفيعة، وباحاطة بعلوم العربية احاطة شمول واستيعاب، وعليه فإنّ قراءاتهم ستكون حتماً متفقة مع الدلالة العامة والخاصة لما يتناوله النص القرآني عدا مسائل محدودة لاتقاس مع عظمة القراءات القرآنية التي غدت علماً قائماً بذاته.

وتبقى النظرة الى هذه القراءات متأرجحة بين التقديس والمناقشة. فمن يقدسها يعدها قرآناً، ومن يناقشها يعدّها علماً بكيفية أداء كلمات القرآن، وفرق بين القرآن وآداء القرآن؛ فقد ذهب الباقلاني الى أن القراءات قرآن نزل من عند الله تعالى، وأنها تنقل خلفاً عن سلف، وأنهم أخذوها من طريق الرواية، لامن جهة الاجتهاد، لأن المتواتر المشهود أنّ القراء السبعة انّما أخذوا القرآن رواية لأنهم يمتنعون من القراءة بما لم يسمعوه . [١٨]

وقد خالفه الزركشي في هذا الملحظ، وعدّ القرآن حقيقة، والقراءات حقيقة أخرى، بقوله: ((والقرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن: هو الوحي المنزل على محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- للبيان والاعجاز والقراءات: اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما)) [١٩]

ومع هذا الأختلاف في النظرة الى هذه القراءات ؛ إلاّ أنّ الثابت لدينا ان الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- قد لاحظ الأختلاف بين البيئات اللغوية التي لم يتمكن المسلمون بعد من الأنسلاخ منها والذوبان في المجتمع الجديد الذي أوجده الاسلام ، فكان لزاماً على النبي- صلى الله عليه وآله وسلم – أن يواءم بين اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ولهجات المسلمين عامة والصحابة خاصة التي تتعدد لهجاتهم بتعدد بيئاتهم اللغوية، ومن هنا قد روي ((أن النبي كان يقرئ الصحابة القرآن قراءات مختلفة))[٢٠] وقد وقف النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – على اختلافات في القراءة وأقرّها للصحابة ، مراعاة للاختلاف اللهجي الاجتماعي الذي تحكمه البيئات اللغوية الاجتماعية .

فقد روى: ((أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم– فأستمعت لقراءته، فاذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يَقْرَأنيها رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلم، ثم لببته بردائه أو بردائي، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم، قلت له: كذبت، فو الله أن رسول الله أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فأنطلقت أقوده الى رسول الله، فقلت : يارسول الله؛ اني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تَقْرَأنيها ، وأنتي أقرأتني بسورة الفرقان! فقال رسول الله: أرسله ياعمر؛ أقرأ ياهشام فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها. قال رسول الله: هكذا انزلت، ثم قال رسول الله: ((انّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأقرؤوا ما تيسر منه)) [٢١]. وهذا الامر يؤكد لنا التيسير والتوسعة في التعاطي اللغوي مع النص القرآني من لدن صحابة الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – بل ومن الرسول نفسه، وذلك أنه قد روي عنه ((أنه – صلى الله عليه وآله وسلم – قرأ: ((مالك يوم الدين)) و((مللك يوم الدين)).[٢٢] وبهذا الاقرار والممارسة، فان الرسول قد تسامح مع ذوي الاختلاف في القراءة، ومن المؤكد أن هذا التسامح والاجازة سوف يقود معه الى تغيرّ في بنية اللفظ تتبعها تغييرات مختلفة في المعنى والدلالة والبنى العميقة المرتبطة بشكل العبارة أو الكلمة القرآنية. وكان القراء على الماما كبير بلغات العرب ولهجاتهم، ناهلين علمهم من معلمهم الاول – الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم – واتضح ان للبيئة الاجتماعية الاثر الاكبر في تحديد وجهة كل قارىء، إذ انّ اللسان المرتبط بتلك البيئة بشقيها : الطبيعي والاجتماعي، ينطلق معبّراً عمّا يحيط به من تلك الظواهر البيئة التي تنعكس حتماً على تفكير الناطق ومشاعره، وانّ الأساس الاجتماعي في دراسة اللغة وفي دراسة السلوك اللغوي للشخص اساس على جانب كبير من الاهمية؛ فاللغة الانسانية في نشأتها... من صنع المجتمع، وفي المجتمع يكون استعمال اللغة، وتعلمها، وتطورها، كما أنّ تأثيرها كائن فيه [٢٣]، ومن هنا برز علم اللغة الاجتماعي ليعالج

موضوعات اللغة من وجهة نظر علم الاجتماع، ووفق مناهجه العلمية المتبعة في تحليل الظواهر الاجتماعية.

ومن خلال هذا العلم يستطيع الباحث التعرف على التغيرات الناجمة عن اللهجات التي تتضح له اثناء دراسته للهجات المختلفة، وهذا مانجده في لهجات العرب، التي تتغير دلالات الفاظها من لهجة الى آخرى .

فمن المسائل المهمة التي يدرسها هذا العلم: بنية اللغة ومدى تمثيلها للبنية الاجتماعية [٢٤] .

وتشكل القراءات القرآنية نسبة كبيرة من تراثنا اللغوي ونستطيع أن نتوصل من خلالها الى فهم الحياة العربية في ذلك العصر ، يقول الدكتور عبد الصبور شاهين في هذا المعنى: ((ومن العلوم التي ينبغي الاعتماد عليها في دراسة العربية الفصحى"علم القراءات القرآنية" مشهورها وشاذها، لأن روايتها أوثق الشواهد على ما كانت عليه ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية، واللغوية بعامّة، في مختلف الألسنة واللهجات)) . [٢٥]

لذلك عندما نرى ابدالاً في البنية السطحية للقرآن من خلال قراءة قرآنية معينة وجب علينا البحث عن سبب هذا الابدال أو التغير وما يعكسه هذا التغير في جوانب اللغة، فاذا قرأ أحد القرّاء بابدال الضمة مكان الكسرة، عرفنا ان ذلك القارىء بدوي بلاشك؛ وذلك لأن ((دلالة الضمة على البداوة والكسرة على الحضارة العربية))[٢٦]

وذلك مثل كلمة "أسوة" في قوله تعالى: ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)) [الاحزاب ٢١] التي تنطق بضم الهمزة وكسرها، وبما قرئ في القرآن الكريم، ومثلها كلمة "قدوة" بضم القاف وكسرها وهما روايتان ذكرتهما المعاجم العربية . يقول الدكتور ابراهيم أنيس: "مالت القبائل البدوية بوجه عام الى مقياس اللين الخلفي المسمّى بالضمة؛ لأنه مظهر من مظاهر الخشونة البدوية، فحيث كسرت القبائل المتحضرة وجدنا القبائل البدوية تضم" [٢٧]

وقد فصّل ابن قتيبة القول في تصنيف القراءات القرآنية وبيان وجوه الخلاف فيها، فوجد أنها سبعة أوجه وفي هذا أشارة الى حديث الأحرف السبعة؛ إلاّ أنّه يرى أنّها لا تتوارد على الكلمة الواحدة، كما ذهب الى ذلك

الطبري [٢٨]، يقول ابن قتيبة ((وقد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه:
١- الأختلاف في اعراب الكلمة، أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها؛ كقوله تعالى: ((هنّ أطهر لكم)) [هود ٧٨] وقرئت بالنصب ((هنّ أطهر لكم)) .
٢- الأختلاف بالزيادة والنقصان، نحو قوله تعالى: ((له تسع وتسعون نعجة))[ص٢٣] وقراءة: (نعجة أنثى) [٢٩])) .

والذي يعنينا من هذه الوجوه ما يتعلق بتغيير الكلمة بما يغير صورتها أو يزيلها ومما لا شك فيه انّ كل تغير في مبنى الكلمة يؤدي الى تغير في معناها، فكيف اذا أزيلت تلك اللفظة برمتها، ووضعت مكانها لفظة أخرى؟

وفي الغالب لكل صيغة دلالة تختلف عن أختها قليلاً أو كثيراً ، وكما انهم قالوا: ((زيادة المباني دليل على زيادة المعاني)) نرى أن ((اختلاف المباني دليل على اختلاف المعاني)) [٣٠] واذا لاحظنا أنّ المعاني قد اختلفت عند استبدال لفظ مكان آخر في القراءة القرآنية فحريّ بنا أن نبحث عن المعنى الذي يدل بلا شك عن دلالة اجتماعية تنبثق من خلال الاستخدام اللغوي. وسنورد مجموعة من القراءات القرآنية التي نتلمس فيها دلالة اجتماعية .

١- قال تعالى في سورة البقرة: ((فادع لنا ربّك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها)) [البقرة٦١] هذه الآية تحكي حال بني اسرائيل، وما فعلوه مع نبي الله موسى عليه السلام ، وكيف كفروا بأنعم الله، وتدل الى أنهم دأبوا على اعنات موسى – عليه السلام -، وأنهم أكثروا من الطلب – فيما يستطاع ولا يستطاع– وفي هذه الآية طلبوا منه أن يسأل ربّه أن يخرج لهم هذه الأصناف من الطعام.

وقد قرأ ابن مسعود الآية بابدال لفظة (الفوم) بلفظة (الثوم)[٣١] ولو عدنا الى المعاجم اللغوية لوجدنا أن: ((الفوم هو: الزرع أو الحنطة، والفوم: الخبز أيضاً وقيل: الفوم لغة في الثوم. قال ابن جني: ذهب بعض أهل التفسير في قوله عزّ وجل (وفومها وعدسها) الى أنه أراد الثوم، فالفاء على

هذا عنده بدل من الثاء، قال: والصواب عندنا أن الفوم الحنطة وما يختبز من الحبوب، وليس الفاء على هذا بدلاً من الثاء)) [٣٢]

وجاء في سؤالات نافع بن الأزرق الى عبد الله بن عباس ((الفوم : الحنطة، قال: فهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت أبا محجن الثقفي وهو يقول:

قد كنت أحسبني اغنى واحد قدم المدينة في زراعة فوم

قال: يا ابن أم الأزرق، ومن قرأها على قراءة ابن مسعود ((الثوم)) فهو هذا المنتن..))[٣٣] .

وقراءة ابن مسعود: (وثومها) بالثاء، كأنها أشبه المعنيين بالصواب ، لأنه مع ما يشاكله من العدس والبصل؛ وهو يتناسب مع محتوى الآية بابدال ماهو خير بما هو أدنى، بقي أن نعرف أن الفوم هو الحنطة بلسان بني هاشم، وهو السنبلة بلغة بني اسد؛ ومن خلال هذا نلحظ أن الدلالة تنوعت مع تنوع اللفظ ، بحسب البيئة الجغرافية وسياق الآية القرآنية.

٢- قال تعالى في سورة الواقعة: ((وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود)) [الواقعة ٢٧-٢٩] هذه الآية تصور مشاهد يوم القيامة، وحال المؤمنين، فهم يأكلون من سدر لا شوك فيه كأنّه خضد شوكه، أي: قطع، ويأكلون من طلح منضود.

وقد قرأ الأمام علي –عليه السلام– مبدلاً لفظ (الطلح) بلفظ (الطلع)[٣٤]، وفي المعاجم: ((الطلح: شجرة حجازية منابتها بطون الأودية وهي أعظم العضاة شوكاً وأصلبها عوداً وأجودها صمغاً . قال ابن شميل : الطلح شجرة طويلة لها شوك كثير من سلاء النخل)) [٣٥] .

أما الطلع فهو: ثمرة النخل في أوّل ظهورها .

وذهب ابن قتيبة الى أن الطلع: ((الموز المنضود الذي نضد بالعمل من أوّله الى آخره)) [٣٦]

فهذه القراءة المستندة الى العرف الاجتماعي في بيئة عربية غذاؤها الأسودان: التمر والماء ... فكانا أقرب الى بيئته من حيث ما قدّمه في قراءته هذه من دلالة ذات ارتباط اجتماعي. فالطلح الذي هو الموز – كما يقول ابن قتيبة – غريب عن البيئة العربية ... وقراءة علي – عليه السلام

ذات الدلالة الاجتماعية الواضحة قد جعلت المعنى مقبولاً في محيط بيئته؛ وقد جاء في مجمع البيان للطبرسي: ((عن عليّ – عليه السلام: أنّه قرأ عنده رجل: ((وطلح منضود))، فقال: ما شأن الطلح ؟، انّما هو طلع ، كقوله: ((ونخل طلعها هضيم)) .[٣٧] فالأختلاف بين هذه اللهجات يؤدي الى تغير دلالة المفردات، فتختلف معاني بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها.

٣- وقال تعالى: ((و زوجناهم بحور عين)) [الطور ٢٠] وجاء في قراءة ابن مسعود لهذه الآية ((وزوجناهم بعيس عين)) [٣٨] مبدلاً كلمة (الحور) بكلمة (العيس) جاء في لسان العرب ((الحور: أن يشتد بياض العين وسواد سوادها، وتسدير حدقتها. وقيل: الحور: شدّة سواد المقلة في شدّة بياضها. والحور: أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر ، وليس في بني آدم حور، وأنما قيل للنساء حور العين تشبيهاً بالظباء والبقر)) [٣٩] . أما العيس ((فهو بياض يخالطه شيء من شقرة وقيل هو لون أبيض مشرب صفاءً في ظلمة خفيقة ، وجمل أعيس، وناقة عيساء، وظبي أعيس)) [٤٠]

فهذه القراءة القرآنية تنطلق من تأثيرات البيئة الطبيعية على الذاكرة اللغوية، فالعربي الذي عاش في الصحراء ملازماً الناقة اعتاد على منظر عينيها لذلك جاء تشبيه النساء بالناقة العيساء، ومن هنا نجد أنّ الدلالة الاجتماعية تتبع دائماً من محيط اللغة واستخداماتها . ولا يخفى أثر القرآن في تهذيب لغة العرب بما تشمل عليه من ألفاظ ومعان وأغراض ، كذلك في انتقاء الألفاظ الرقيقة التي تخفف من وطأة حياتهم الجافة الخشنةً .

٤- قال تعالى: ((اني أراني أعصر خمراً)) [يوسف ٣٦] هذه الآية تحكي جانباً من قصة يوسف – عليه السلام – فقد رأى أحد الفتيين اللذين حبسا معه في السجن في منامه أنه يعصر خمراً .

وجاءت قراءة ابن مسعود: (اني أراني أعصر عنباً) [٤١] بابدال لفظ (الخمر) بلفظ (العنب)، وقد ذكر ابن قتيبة :(أعصر عنباً) يقال: عنباً، قال الاصمعي خبرني المعتمر بن سليمان أنّه لقى أعرابياً معه عنب، فقال: ما معك، قال: خمر، وتكون الخمر بعينها كما يقال: عصرت زيتاً، وانّما عصرت زيتوناً))[٤٢]

وجاء في الكشاف للزمخشري: ((وقيل: الخمر بلغة عمان اسم للعنب)) [٤٣] فالملاحظ على هذه القراءة ان الدلالة الاجتماعية في أذهان القرّاء جعلتهم يعدون العصر للعنب وليس للخمر، أو أن هذه الآية القرآنية جاءت موافقة للهجة أهل عمان. ولكل لغة بنيتها الخاصة بها، وبما لاشك فيه ان اللغة في تطور مستمر، يساير التطور في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، فاللغة تساير حياة المجتمع في مراحله المختلفة؛ لذا نستطيع ان نتلمس الكثير من التغيرات التي حصلت في اللغة العربية من خلال القراءات القرآنية، نسبة الى الاختلاف اللهجي بين قرّاء القراءات.

٥- قال تعالى : ((انّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً)) [يس ٨] في هذه الآية تصوير لحال المشركين في ضلالهم ، وتشبيهاً لهم ، بالذين غلّت أيديهم وجمعت الى اعناقهم، فبقيت رؤوسهم مرفوعة لايمكنهم خفضها ، والمراد من هذا التمثيل: أنهم لايذعنون للايمان، ولا يخفضون رؤوسهم له ، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : ((ومعنى الآية: انا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، كمن جعل في عنقه غلّ، وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه، وأكتفى بذكر الغل في اليدين مع العنق)) .[٤٤]

وقد قرأ ابن عباس: (انّا جعلنا في أيمانهم أغلالاً) [٤٥] مبدلاً لفظ (أعناقهم) بلفظ (أيمانهم)

جاء في لسان العرب: ((العنق: وصلة ما بين الرأس والجسد))[٤٦] واليمين: نقيض اليسار، والجمع أيمان، والعرب تتبارك باليمين وتتشاءم من اليسار لذلك فهم يطلقون على اليدين أيمان.

وقد عرف عند العرب وضع القيد في اليد اليسرى للمعاقبين أو السجناء والأسرى؛ لذا تركزت هذه الصورة في ذهن ابن عباس وهو يقرأ هذه الآية، فأبدل لفظ الأعناق بلفظ الأيمان، للدلالة على السياق الذي وردت فيه الآية، وللتعبير عن العادات الجاهلية التي هي من صلب الحضارة العربية، فلا نستطيع أن نفهم سلوك العربي الذي عاش فيما قبل الاسلام، وبعده، الا اذا عرفنا هذه العادات، والمظاهر الأجتماعية التي كانت ترافقهم.

٦- قال تعالى: ((وتكون الجبال كالعهن المنفوش)) [القارعة ٥] هذه صورة من صور يوم القيامة يبين فيها الله – عز وجل – للناس كيف تكون تلك الساعة، فهذه الجبال الراسخة تكون قطعاً متطايرة، فشبّه الجبال بالعهن، والعهن: الصوف المصبوغ ألواناً، وقيل : كلّ صوف عهن .(٤٧)

وجاء في قراءة ابن مسعود لهذه الآية: ((وتكون الجبال كالصوف المنفوش) (٤٨) والصوف للغنم كالشعر للمعز والوبر للأبل .(٤٩)

فقراءة ابن مسعود تنطلق من مؤثرات البيئة الطبيعة؛ ذلك لأن الصوف من أوليات المواد المعروفة والمستعملة عند العرب، وهو من نتاج حيواناتهم التي تعايشهم في بيئتهم. أمّا العهن فهو المادة التي أجريت عليها الصنعة، فأصبحت بألوان مختلفة تستخدم لتزيين الهودج.

لذا فالمتعارف عليه هو الصوف، والذي يمثل التشبيه في الآية؛ وذلك لأن صناعته– ان صحّ التعبير– تتم بالعصا التي يضرب بها فيتطاير قطعاً صغيرة، ومن هنا جاء التشبيه في الآية الكريمة، لرسم صورة واضحة عن طريق تشبيهها بالصورة المألوفة لدى المتلقي.

٧- قال تعالى في سورة النساء الآية (٤٠) : ((ان الله لايظلم مثقال ذرّة)) وقد قرأها ابن مسعود: ((لايظلم مثقال نملة)) (٥٠) ، وعندما نعود الى معنى الآية الكريمة نجده يدل على أن الله سبحانه وتعالى لا يبخس أحداً من عمله شيئاً، ولو كان وزن ذرة، وهي الهباءة وذلك على سبيل التمثيل ، تنبيهاً بالقليل على الكثير.

وابن مسعود – وهو المشار اليه علماً ومعرفة بالقرآن – راعى أمر الدلالة الأجتماعية، واحكامها المختلفة بما يتلاءم مع العرف الاجتماعي العام، فقراءته متفقة مع المدلول المعروف للفظة من خلال ارتباطهما بمدلول واحد، وهو صغر الحجم، الاّ أنّه أراد تقريب المعنى؛ لان النملة شيء ماديّ معروف عند العرب، وتعد من توافه الاشياء، لصغر حجمها فقياس الاحجام بهذا المقياس الصغير يعطي توضيحاً وتقريباً للتمثيل ، يقول ابن قتيبة: ((مثقال ذرة: أي: زنة ذرة، يقال هذا على مثقال هذا، أي: على وزن هذا، والذرة وجمعها ذرّ هي أصغر النمل))(٥١) . فالدلالة الاجتماعية التي تبرز من هذه القراءة هي مرتبطة بسياق الآية أوّلاً، وبالاستخدام

العرفي ثانياً؛ وبهذا نستدل على بدائل التعبير اللغوي التي جاء بها القرآن الكريم، والتي تستخدمها الكيانات الاجتماعية للتعبير عن الشيء الواحد.

٨- قال تعالى: ((أو كلّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم)) [البقرة ١٠٠]
هذه الآية تحكي حال اليهود الذين اعتذروا عن الايمان بالنبي محمد – صلى الله عليه وآله وسلم – وبما جاء به من الآيات البينات، والعهود لهم، ولا يوثق بهم في شيء.

وقد قرأ عبد الله بن عباس: ((أو كلما عاهدوا عهداً نقضه فريق منهم))[٥٢] مبدلاً لفظ (نبذه) بلفظ (نقضه) . والدلالة المعجمية للفظ (نبذ) في لسان العرب هي: ((النبذ: طرحك الشيء من يدك، أمامك أو وراءك. نبذت الشيء أنبذه اذا ألقيته من يدك، ونبذت الشيء اذا رميته))[٥٣]

أمّا النقض فهو: ((أفساد ما أبرمت من عقد أو بناء أو عهد))[٥٤]
فدلالة اللفظين المعجمية مختلفة الا أن استعمال القرآن للفظ (نبذ) في هذا سياق أعطى صورة لحال اليهود في عدم التزامهم بالعهود .

أمّا قراءة ابن عباس فتحكمها الدلالة الاجتماعية التي تتبع من مخزونه اللغوي وعرفه الاجتماعي الذي رسّخ المفهوم القرآني لصورة اليهود في سياستهم مع النبي محمد – صلى الله عليه وآله وسلم – فغدت لفظة (نقضه) اكثر اتساقاً مع الدلالة الاجتماعية التي تمثل التداول اللغوي العام، وتناسب سياق القراءة.

نتائج البحث

- اللغة هي المرآة العاكسة لحياة الشعوب فهي الوسيلة الأبرز للتعبير عما يختلج في داخل الإنسان في تعامله مع البيئة الاجتماعية المعينة.
- لايمكن فهم الحياة الاجتماعية للعرب في بيئتهم التي عاشوا فيها قبيل الإسلام وبعده إلا من خلال لغتهم التي تعبر عن عاداتهم وتقاليدهم.
- شكلت القراءات القرآنية مصدراً مهماً من مصادر التراث اللغوي العربي، لما تميزت به من دقة في النقل و الرواية . فكانت تلك القراءات مدار بحثنا عن الدلالة الاجتماعية.
- مثلت تلك القراءات بيئات لغوية متعددة عكست الحياة الاجتماعية لتلك البيئات.
- أبرزت النماذج التي سقناها والتي عكست أثر الدلالة الاجتماعية أحد الأسباب وراء تعدد القراءات القرآنية ، فكان الخزين اللغوي لدى القراء يمثل التنوع اللغوي الذي هو انعكاس لتعدد اللهجات العربية.

المصادر والمراجع

١-القرآن الكريم
٢-الأتقان في علوم القرآن / جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ،ط ١ – القاهرة ١٩٦٧ م.
٣-البرهان في علوم القرآن / بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت هـ) تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعرفة – بيروت ١٩٧٢ م
٤-تاريخ القرآن / د. عبد الصبور شاهين ، دار الكتاب العربي – القاهرة ،د.ت.
٥-تأويل مشكل القرآن / عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) شرح وتحقيق: السيد احمد صقر ، د.ت.
٦-تفسير غريب القرآن / عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ) تحقيق: السيد احمد صقر،دار احياء الكتب العربية– عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ١٩٥٨م .
٧-جامع البيان عن تأويل القرآن / ابو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ) مطبعة البابي الحلبي – القاهرة ١٩٥٤ م.
٨-الخصائص / ابو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) تحقيق : محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – العراق ، د.ت.
٩-دراسات في اللغة / د. ابراهيم السامرائي، مطبعة العاني – بغداد ١٩٦١م .
١٠- سؤالات نافع بن الأزرق الى عبد الله بن عباس .
١١- علم الدلالة / د. احمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة، ط١ – الكويت ١٩٨٢ م .
١٢- علم اللغة الاجتماعي / د. هدسن. ترجمة : د. محمود عبد الغني عياد ، ومراجعة: د. عبد الامير الأعسم ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد١٩٨٧ م
١٣-
١٤- في اللهجات العربية/ ابراهيم انيس، المطبعة الفنية الحديثة– القاهرة ١٩٦٥ م.
١٥- القراءات القرآنية بين المستشرقين والنحاة / د. حازم سليمان الحلي، النجف ١٩٨٧ م .
١٦- القراءات القرآنية: تاريخ وتعريف / د. عبد الهادي الفضلي ، دار القلم- بيروت – لبنان ١٩٨٥ م .
١٧- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث / د. عبد الصبور شاهين ، القاهرة ١٩٦٦ م .
١٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل / ابو القاسم جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، دار الفكر ، د.ت.

١٩- لسان العرب / محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هــ) طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، د.ت.
٢٠- اللغة / فندريس ، ترجمة : عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص / القاهرة ١٩٥٠ م .
٢١- اللغة والمجتمع / د.علي عبد الواحد وافي ، دار احياء الكتب العربية / عيسى البابلي الحلبي وشركاؤه ١٩٤٦ م .
٢٢- اللغة والمجتمع: رأي ومنهج / د. محمود السعران ، بنغازي ١٩٥٨ م .
٢٣- مباحث في علوم القرآن / د. صبحي الصالح ، ط ٧ ، دار العلم للملايين ١٩٧٢ م .
٢٤- مجمع البيان في تفسير القرآن/ ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار الفكر، د.ت .
٢٥- تفسير ابن كثير / عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٢ هــ) راجعه وخرج احاديثه الشيخ ايمن محمد نصر الدين و د. عبد الرحمن الهاشمي ، مؤسسة المختار / القاهرة ٢٠٠٦ م .
٢٦- معاني النحو / د. فاضل السامرائي – بغداد ١٩٩١ م .
٢٧- المعجم العربي: نشأته وتطوره / د. حسين نصار، مكتبة مصر، د. ت.
٢٨ – معجم القرآت القرآنية مع مقدمة في القراءات، واشهر القراء / د. احمد مختار عمر ، و د. عبد العال سالم مكرم ، ط٢ – الكويت ١٩٨٨ م .
٢٩- المقتبس في اللهجات العربية والقرآنية / د. محمد بن سالم محيصن١٩٨٦ م .
٣٠- نكت الانتصار لنقل القرآن/ ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣ هــ) تحقيق : محمد زغلول سلام ، منشات معارف – الاسكندرية ١٩٧١م .

الهوامش

١- علم اللغة الاجتماعي/ د. هدسن : ص ٢٠ .
٢- الخصائص/ ابن جني : ٣٣/١ .
٣- علم اللغة الاجتماعي : ص٨٧ .
٤- اللغة / فندريس : ص١١ .
٥- اللغة والمجتمع / د. علي عبد الواحد وافي : ص٤ .
٦- دراسات في اللغة / د. ابراهيم السامرائي : ص١٣١ .
٧- ينظر: اللغة والمجتمع / د. علي عبد الواحد وافي : ص١٤٩ .
٨- في اللهجات العربية / ابراهيم انيس : ص١٦ .
٩- ينظر : المصدر نفسه : ص١٦-١٧ .
١٠- المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية / د. محمد سالم محيصن .
١١- المعجم العربي : نشأته وتطوره / د. حسين نصار : ٧٠/١ .
١٢- ينظر: علوم القرآن ص ٣٤.
١٣- في اللهجات العربية : ص١٦ .
١٤- تأويل مشكل القرآن / ابن قتيبة : ص٢٨ .
١٥- تاريخ القرآن / د. عبد الصبور شاهين : ص٢٢٩ .
١٦- الاتقان في علوم القرآن / السيوطي : ١ /٤٧ .
١٧- علم اللغة الاجتماعي : ص٣٤ .
١٨- ينظر : نكت الانتصار لنقل القرآن : ص٤١٥
١٩- البرهان في علوم القرآن /الزركشي : ٣١٨/١ .
٢٠- القراءات القرآنية بين المستشرقين والنحاة / د. حازم سليمان الحلي : ص٢١
٢١- تفسير الطبري : ١٣/١ .
٢٢- القراءات القرآنية : تاريخ وتعريف / د. عبد الهادي الفضلي : ص٩٢ .
٢٣- اللغة والمجتمع : رأي ومنهج / د. محمود السعران : ص٢٩ .
٢٤- ينظر : اللغة والمجتمع / د. علي عبد الواحد وافي : ص٦٢ .
٢٥- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث / د.عبد الصبور شاهين:ص٧ .
٢٦- علم الدلالة / د. احمد مختار عمر: ص٣٤ .
٢٧- في اللهجات العربية : ص٩٠ .
٢٨- ينظر : تفسير الطبري : ٥٧/١ .
٢٩- تأويل مشكل القرآن : ص٢٩ .
٣٠- معاني النحو / د.فاضل السامرائي ١١/١ .

٣١- معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات ، واشهر القراء/ د. احمد مختار عمر و د. عبد العال سالم مكرم : ٦٣/١ .
٣٢- لسان العرب / ابن منظور : ٢/ ٨١٣ (فوم) .
٣٣- سؤالات نافع بن الازرق الى عبد الله بن مسعود ص١٤ .
٣٤- معجم القراءات القرآنية ١٧/١ .
٣٥- لسان العرب ٢/ ٧٣٥ (طلح) .
٣٦- تفسير غريب القرآن / ابن قتيبة ١٥٤/٢ .
٣٧- مجمع البيان في تفسير القرآن ١١٩/٢٧ .
٣٨- معجم القراءات القرآنية ٢٥٦/٦ .
٣٩- لسان العرب : ٧٥١/١ (حور) .
٤٠- لسان العرب : ٩٤١/٢ (عيس) .
٤١- معجم القراءات القرآنية : ١٦٩/٣ .
٤٢- تفسير غريب القرآن : ٢٢٥/١ .
٤٣- تفسيرالكشاف / الزمخشري ٣١٩/٢ .
٤٤- تفسير ابن كثير ٨١١/٣ .
٤٥- معجم القراءات القرآنية : ١٩٧/٥ .
٤٦- لسان العرب : ٩٠٤/٢ (عنق) .
٤٧- لسان العرب : ٢ /٩١٧ (عهن) .
٤٨- معجم القراءات القرآنية : ٢٢١/٨ .
٤٩- لسان العرب : ٤٩٤/١ (صوف) .
٥٠- معجم القراءات القرآنية : ١٣٣/٢ .
٥١- تفسير غريب القرآن ١١٩/١ .
٥٢- معجم القراءات القرآنية : ٩٤/١ .
٥٣- لسان العرب : ٥٦٦/٣ (نبذ) .
٥٤- لسان العرب ٧٠٥/٣ (نقض) .